إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الرابعة – العدد الخامس عشر – خريف ١٣٩٣ش /أيلول ٢٠١٤م
صص ٧٩ ـ ٦١

ظاهرة تراسل الحواس فى شعر أبى القاسم الشابى وسهراب سبهرى

زينت عرفت پور*
امينه سليمانى**

الملخص

تراسل الحواس هو نوع من أنواع تنمية الصورة الشعرية عن طريق التبادل بين مدركات الحواس التى يقوم بها الشاعر للتوسع فى الخيال وخلق صورة مميزة ومؤثرة لإثارة الدهشة فى المتلقى. وقد قامت هذه الدراسة باستعراض تقنية تراسل الحواس فى شعر أبى القاسم الشابى وسهراب سبهرى؛ حيث اعتمدا عليها فى نتاجاتهما الشعرية بشكل ملحوظ وممتاز. والجدير بالذكر أنّ تبيين مدى نجاح هذين الشـاعرين فى توظيف تقنية تراسل الحواس لخلق الألفاظ والمعانى المبتكرة وتحفيز مشاعر المتلقى لاستيعاب شعرهما، هى مهمتنا التى لم يتطرق إليها بحث مستقل من قبل. وفى هذا البحث نقوم بدراسة هذه الظاهرة من خلال اختيار نماذج شعرية من الشاعرين، وتفسيرها على أساس المنهج الوصفى – التحليلى. ففى شعر الشاعرين أدّى اختلاط الحواس وتعبير أحدهما عن الآخر إلى كسر الحواجز الموجودة بين الحواس وتجاوز حدود المعانى لإشراك المتلقى فى تجربة الشاعر التى عاشها خلال خلق العمل الأدبى المقروء.

الكلمات الدليلية: أبوالقاسم الشابى، سهراب سبهرى، تراسل الحواس.

---

*. أستاذة مساعدة بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطهران، إيران.
z.erfatpor@gmail.com
**. طالبة مرحلة الماجستير بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطهران، إيران.
Aminesoleimani66@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. عبدالحميد أحمدى
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٩/١٤ش تاريخ القبول: ١٣٩٣/٥/٢٨ش

المقدمة

إنّ النمو العضوى داخل القصيدة قد لايتمّ إلاّ بترابط بعض الحواس؛ إذ إنّ تساوقها يتولـد من داخل العلاقـات التى يتطلبها النص؛ فقد يتطلب المعنـى فى البيت أن تنبثق حاسـة ثانية وثالثة ورابعة، ليتم المعنى وتكتمل الصور الحسية. وقد لا تتشكل الصورة النهائية إلاّ بتضافر عدد من الحواس. ولاشـك أن المتعة الفنية فى ترابط الحواس أجمل فنّيـاً، علمـاً بأنّ لها النصيب الأوفى فى الشـعر العربى؛ كما أنّ الإحسـاس بالجمال لا يقتصر على حاسّـة واحدة فحسـب، وإنّما ثمة حواسّ مختلفة يمكن بوساطتها التحسس بجمـال الصور، نظراً لما تشـكّله تلك الحواس من أثـر فى تحقيق الغرض الذى يتوخاه الشـاعر. (إبراهيم، ٢٠٠٠م: ١٣٠) لذا قام الشـعراء بتبادل معطيات الحواسّ ومزجها لخلق صورة حسية أو شعرية منفعلة تساعدهم فى نقل الأثر النفسى لمتلقى شعرهم. وأما تراسل الحواس فهو «أن نَصِفَ مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات الحواس الأخرى؛ فتعطى المسموعات ألواناً وتصير المشمومات أنغاماً، وتصبح المرئيات عطرة.» (الجنابى، لاتا: ٢٢) وإذا كان هذا التراسل الحواسى بمعناه العام يقصد أن ينأى الشاعر عن السـياق المألوف للمفردة المعبرة عن حاسـة ما فينقل إليها مفردات حاسة أخرى (الصائغ، ١٩٩٧م: ١٣٦) فإنّ هذا يدل بشـكل أو بآخر على اقتراب الصورة التراسلية من الصورة الغرائبية التى تغادر فيها الألفاظ مدلولات الأشـياء ومنطقها. فالغريب هو ما يأتى من منطقة خارج منطقة الألفة، ويسـترعى النظر بوجوده خارج مقرّه. (كيليطو، ١٩٩٧م: ٦٠) فالشـاعر يعمد إلى مزج الحواسّ والربط بينها لاسـتقطاب انتباه المتلقى وإثارة الانفعال النفسى فيه، كى يشعر بما يشعر به الشاعر فى الأجواء النفسية والشعورية. وجدير بالذكر أننا اخترنا العمل الشـعرى لكلٍ من الشابى وسبهرى لأنّهما ينتميان إلى المدرسة الرمانسـية فى الشعر، حيث استخدما تقنية تراسل الحواس فى شعرهما للتعبير عن تجاربهما الشعرية والكشف عما حولهما بطريقة غيرمطروقة.

أسئلة البحث

إلى أى مدى استخدم الشابى وسبهرى تقنية تراسل الحواس فى أشعارهما؟

ما هو هدف استخدام تقنية تراسل الحواس عند الشابى وسبهرى؟
أكان استخدام تقنية تراسل الحواس فى أشعارهما استخداماً ناجحاً؟

منهج البحث

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفى – التحليلى، الذى يغوص فى البحث بالتحليل الدقيق المتكامل من خلال دراسة النماذج الشعرية وتحليلها من جهة استخدام تقنية تراسل الحواس ومقارنة مدى استخدامها فى شعر أبى القاسم الشابى وسهراب سبهرى.

خلفية البحث

أنجزت دراسات عديدة حول ظاهرة تراسل الحواس فى الأدبين العربى والفارسى، منها: "بلاغة تراسل الحواس فى القرآن الكريم (نماذج تطبيقية)" لأحمد فتحى رمضان، مطبوعة فى مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد الأول، المجلد الرابع عشر، كانون الثانى ٢٠٠٧م؛ ففى هذه الدراسة يأتى الباحث بدراسة ظاهرة تراسل الحواس فى الآيات القرآنية، وكيفية توظيفها. "ظاهرة تراسل الحواس فى شعر الشيخ أحمد الوائلى" لكاظم عبدالله عبدالنبى عنوز مطبوعة فى مجلة الدراسات والأوثقة، العدد السادس، ٢٠٠٧م؛ وفى هذا البحث قام الباحث بتحليل النماذج الشعرية من ديوان الشيخ أحمد الوائلى التى استخدم فيها تقنية تراسل الحواس، وبيّن مدى نجاحه فى استخدامها. الدراسة الأخرى هى "الصورة الفنية فى التجربة الرومانسية؛ ديوان أغانى الحياة لأبى قاسم الشابى" رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، لزكية يحياوى، فى جامعة مولود معمرى تيزى – وزر فى الجمهورية الجزائرية، ٢٠١١ م؛ تستعرض الباحثة فى قسم من هذه الرسالة نماذج شعرية من ديوان الشابى التى استخدم فيها تراسل الحواس، وجدير بالذكر أن الباحثة تأتى بالنماذج دون تحليلها لكن نحن فى دراستنا قمنا بتحليل النماذج وتبيين كيفية استخدام تراسل الحواس فيها؛ ورسالة أخرى مقدمة لنيل درجة الماجستير تحت عنوان "البنية الفنية فى شعر كمال أحمد غنيم" لخضر محمد أبو جحجوح، ففى قسم من هذه الرسالة درس الباحث ظاهرة تراسل الحواس فى شعر أحمد غنيم.

ودراسة أخرى مقدمة لنيل درجة الماجستير تحت عنوان "شعر سعدى يوسف، دراسة تحليلية"؛ وفى هذه الرسالة أيضاً قامت الباحثة بدراسة وجيزة وعابرة لظاهرة تراسل الحواس فى شعر سعدى يوسف.كما أن هناك مقالة تحت عنوان: " ابوالقاسم شابى ميان رومانتيسم و سمبوليسم" حجت رسولى، وسعيد فروغى نيا فى مجلة پژوهش هاى نقد و ترجمه زبان و ادبيات عربى، العدد الاول، شتاء سنة ١٣٩٠ش، وقد تناولت هذه المقالة الرمزية فى شعر الشابى ودرست بعض سمات الرمزية التى تتواجد فى شعره، منها: تراسل الحواس، وقد ذكرت نموذجين من هذه الظاهرة فى شعر الشابى. (انظر: رسولى، فروغى نيا، ص ١٨، ١٩) وأما فى الأدب الفارسى فهناك دراسات فى ظاهرة تراسل الحواس، منها: "حواس پنجگانه وحس آميزى در شعر" لبرستو كريمى، مطبوعة فى مجلة گوهر گويا، السنة الثانية، العدد الثامن، سنة ١٣٨٧ش. و"حس آميزى؛ سرشت و ماهيت" لمينا بهنام، مطبوعة فى مجلة پژوهش زبان وادبيات فارسى، العدد التاسع عشر، سنة ١٣٨٩ش. وقد استفدنا من معظم هذه الدراسات فى هذا البحث، غير أن دراسة الموضوع (تراسل الحواس) دراسة مقارنة فى الأدبين العربى والفارسى من خلال شعر الشابى وسبهرى دراسة جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل.

مصطلح تراسل الحواس ومفهومه

كثيراً ما نفصل بين مدركات حواسنا الخمس ولا نخلط بينها، فنقول: إنّ اللون الأبيض مدرك بصرى، وصوت العصفور مدرك سمعى، وحلاوة العسل مدرك ذوقى، ورائحة الزهور مدرك شمّى، ونعومة الزجاج مدرك لمسى؛ كل هذا صحيح إذا اكتفينا بالجانب الحسى للمدركات، أما إذا نظرنا إلى جانبها النفسى فإن الأمر يختلف، فمثلاً اللون الأبيض يبعث على الانشراح، وكذلك نعومة الزجاج؛ ولذلك يجوز أن نقول: الأبيض الناعم، كما أنّ صوت العصفور يبعث على النشوة وكذلك عطر الزهرة، أفلا يجوز أن نقول: الصوت العطرى؟ إنّ هذا الخلط جائز فى عالم الشعر، وينطوى تحت ظاهرة تُسمّى تراسل الحواس؛ أى وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات حاسة أخرى. (فارس، ٢٠٠٤م: ١٩٤) وفى ذلك إبراز للأحاسيس والعلاقات الخفية بين

الأشـياء؛ فالصورة المتجاوبة أو المتراسلة أو المزدوجة أو المحوّلة كلُّها مصطلحات تحمل دلالة واحدة، وهى الصور التى تصف مدركات حاسـةٍ من خلال حاسة أخرى، فتعطى المسـموعات ألواناً وتهب الألوان أنغاماً وتُصيّر المرئيات عاطرةً، وتجعل المشـمومات ألحاناً، (اليافى، ١٩٨٢م: ١٥٨) بحيث تتفاعل جملة الحواسّ البشرية فى بوتقة الإحساس الفياض الذى يسـتغرق الحالة الشعورية ويضىء الدفقة التصويرية ويمدّها بطاقات من التنـوع ليزيـد الصورة جمالاً ووضوحاً مـن خلال التفاعل بين الحـواس المختلفة التى تشـكل الوعى والإحسـاس. (أبوجحجوح، ٢٠١٠م: ٧٦) «ويعطى تراسـل الحواس للشـاعر فرصة استثمار الإيحاء فى حاسـتين أو أكثر، وبذلك يكثّف مشاعره، ويركّزها فى الإتجاه الذى هو ينشده؛ يضاف إلى هذا أن تراسل الحواس مما يُثرى اللغة ويُنميها، لأنه يعنى ضمناً أن ينأى الشـاعر عن السـياق المألوف للمفردة المعبرة عن حاسـة ما، فينقل إليها مفردات حاسة أخرى؛ وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسة الواحدة.» (الصائغ، ١٩٩٧م: ٣٦)

الرمز والرمزية وتراسـل الحـواس مجموعة من المفهومات الـتى تنحدر من المعنى الأصلـى لكلمة رمز. إن كلمـة symbolon اليونانية كانت تسـتعمل للدلالة على أداة مشـطورة إلى نصفين، يتقاسمهما شـخصان، وتصير رمزاً ذا معنى حين يستطيع حاملها تجميع جزأيها، أى إن أجزاء الكل تولد فيما بينها علاقة تكامل. وفى الحديث عن الرمز تتشـارك حاسـتان، ويمكن لهذه العلاقات أن تنشأ بين الأشـياء المختلفة، وبين ما هو مرئـى وما هو غير مرئى. إنّ توافق الحواس هذا هـو أحد أهم المفهومات التى تميزت بها المدرسـة الرمزية، وأطلق عليـه مفهوم الـ correspondance وترجـم إلى العربية بـ "تراسـل الحـواس"، أو "تزامن الحواس"، أو "توافق الحـواس"، أو "التوافق على نحو مختصر"، وترجم حتى بـ "نظرية العلاقات"، ودُرس فى إطار التمازج فى التفاعل الحسى. (الغذامى، ٢٠١١: ٦)

نظرية تراسل الحواس

إنّ تراسـل الحواس باعتباره ظاهرة فنية له جذور فى الشـعرين العربى والفارسى

القديمين، كما نجده فى الشعر الغربى القديم أيضا. وفى القرآن الكريم أيضاً نجد هذا التراسل أو التبادل بين معطيات الحواس، حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى الآية الشريفة: ﴿يُطاف عليهم بصحافٍ من ذَهَب وأكوابٍ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون﴾ (الزخرف: ٧١)

أمّا تراسل الحواس فى معناه النقدى والبلاغى فإنّه يرتبط بالعصر الحديث، حيث أنّ الشاعر الفرنسى بودلير[1] يعدّ أول من تكلّم عنه نظرياً وطبّقه فى شعره؛ ففى تنظيره يقول: إنّ من العجيب أن يكون الصوت غير قادر أن يوحى باللون وإن الألوان لا تستطيع أن تعطى فكرةً عن النغم وأنّ الصوت واللون غير صالحين للتعبير عن الأفكار. (فارس، ٢٠٠٤م: ١٩٤)

وفى الشعرالتالى يقول:

فإنّ العطور والألوان والأنغام تتجاوبُ

فمن العطور ما هى ندية كلحم الأطفال

ومنها العذبة كلحن المَزامير

ومنها الخضراءُ من مُروج (الشابى، ١٩٩٧م: ١٩٤)

ثم تطورت وازدهرت نظرية تراسل الحواس على يد الرمزيين وقاموا بالمزج بين أكثر من حواسين فى أدبهم. والجدير بالذكر أن تراسل الحواس فى المدارس الأدبية الأخرى كالرومانسية مثلاً كان موجوداً، لكن ازدهاره وتطوره كان على يد الرمزيين. فى الواقع «إنّ أول ما بشّر به الرمزيون إجراء الفوضى فى مدركات الحواس المختلفة، ومحاولة الوصول بالشعر إلى اللامحدودية التى وصلها الفن الموسيقى.» (خورشا، ١٣٨٨ش: ٢١٠)

حياة أبى القاسم الشابى فيما يتصل بالنص

ولد أبو القاسم الشابى عام ١٩٠٩م، فى بلدة "الشابية" إحدى ضواحى مدينة "توزر"، كبرى بلاد "الجريد" بالجنوب التونسى. يمثل الشابى نموذجاً خاصاً فى حياته،

1. charles Pierre Baudelaire

وشــعره؛ بعبقريته المبكرة التى جادت بالشــعر، وبإدراكه للكثير مــن الأمور، فالقارئ لديوانه يحتاج إلى جهد ليقتنع أنه نابع من شاب فى مقتبل العمر لم يتجاوز عقده الثالث. وذلک لما فى شــعره تجربة شعرية، وشــعورية، وانفعالية، وصور مبتكرة، ومعرفة بالشعر وفنونه. (أبوالرب، ٢٠٠٩م: ١٤) أبوالقاســم الشــابى استخدم تراسل الحواس فى شعره لتعميق دلالة صورته الشعرية، والكشف عن أعماق الصورة الشعورية، فمن الطبيعى أن يســتخدم الشابى تقنية تراسل الحواس فى شعره لكسر المألوف والعادى، لأنّه من الذين ينتمــون إلى جماعة أبلو، هؤلاء الذين «طــوروا الأخيلة والصور، وانتقلوا بها من مجرد التشبيه والاستعاره والمجاز والكناية إلى الصورة الحية الناطقة المتحركة، معتمدين على التجسيد والتشخيص وتراسل الحواس.» (خورشا، ١٣٨٨ش: ١٣٤)

حياة سهراب سبهرى فيما يتصل بالنص

ولد سهراب عام ١٣٠٧ش فى مدينة كاشان. كان سهراب قبل كل شيء مارّاً فى أزقة الأســاطير الإيرانية، فتفانى فى طبيعة بيئته التى نشأ فيها. (حيدريان شهرى، ١٣٩١ش: ٤١) فهو كان رسّاماً قبل أن يكون شاعراً، وهذا الأمر أثّر على أدبه، فأصبح شعره لوحة دقيقة من الطبيعة. وجدير بالذكر أنّ من ميزات ســبهرى الشــعرية هى اســتخدام تقنية تراســل الحواس بصورة مكثفة، وهذه التقنية وإن كانت شائعة الاستخدام عند الشعراء الســابقين ولكنها فى شعر ســبهرى كانت أكثر توظيفا، ونستطيع أن نعدّ تراسل الحواس ميزة ملحوظة من ميزات أســلوب سبهرى الشعرى. فتراسل الحواس يعد من الأدوات التى اتخذها ســبهرى لكســر المعمول أو العادى فى شــعره، ولكثرة استعماله لهذه التقنية التصويرية، يعدها البعض أنها غير ناجحة تماماً فى شــعره؛وترجع أهمية سهراب سبهرى إلى أســلوبه الشــعرى، وأهم عنصر فى هذا الأســلوب هو كثرة توظيفه لتقنية تراســل الحواس، التى تكون تارةً ناجحة وتارةً غير ناجحة. (روحانى وفياضى، ١٣٨٨ش: ١٥)

تراسل الحواس بين الشابى و سبهرى

تراســل الحواس يؤدى إلــى نقل التجربة الشــعورية من نفس الشــاعر إلى نفس

المتلقى كما تنطبع فى وجدانه وخياله، وجدير بالذكر أنّ تراسل الحواس ينقل التجربة الشعورية نقلاً خصباً ويجعلها حية التصوير بالوجه الذييثير انفعالية المتلقى ويأخذ به للتعمق فى الصورة الشعرية المتقدمة؛ فتراسل الحواس يعمل على نقل صفات مدركات الحواس. «فنقل صفاتها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسى، كما هو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة.» (هلال، ١٩٧٣م: ٣٩٥) فظاهرة تراسل الحواس توجد فى الشعر العربى والفارسى، لأنها تساعد الشاعر فى نقل ما يشعر به إلى نفس المتلقى كما هو فى نفس الشاعر؛ ولهذا نرى أنّ الشاعر العربى أبا القاسم الشابى والفارسى سبهرى كلاهما استخدما هذه التقنية اللغوية فى عملية التوصيل الأدبية، وفيما يلى استعراض لخصائص هذه الظاهرة فى شعرهما.

الف) الصورة الصوتية المحولة إلى البصرية وبالعكس:

«وما من شك فى أن تبادل الحواس لمواضعها له دلالة إيحائية قوية تنبعث من السياق الشعرى، وربما يستمر تراسل الحواس كى يؤكد الصورة ويضيف إليها جديداً.» (الخياط، ٢٠١٢م: ١٦٣) ويتجلى ذلك بوضوح فى أبيات الشابى حيث يقول:

سيُسمَعُ صوتٌ كلحن شَجيٍ تَطاير من خَفقات الوتَر
يُردّده حزنُنا فى سكونٍ على قبرنا الصامت المطمئن

(الشابى، ١٩٩٧م: ١٦٢)

يقول الشابى فى هذين البيتين: سيُسمع صوت كلحن حزين يتناثر وينتشر من حركات الأوتار، يردّده حزننا فى سكوت على قبرنا الصامت الساكن، يشير الشاعر فى هذين البيتين إلى البيئة التى عاش ظروفها الضنكة وعانى آلامها دون أن يسمَع له نداء.

فهكذا نرى الشابى شاعر الرومانسية يمزج بين حاسة البصر والسمع لخلق صورة شعرية موحية حتى يتمكن من التعبير عن تجربتة الشعورية إلى متلقى شعره. فهكذا تتشكل تقنية تراسل الحواس، عن طريق نقل ألفاظ وصفات متصلة بعالم معين من عوالم الحس كالسمع، والبصر، واللمس، وغيرهما من الحواس إلى مجال آخر من مجالات الحس كعون قوى على التعبير والإيحاء. (محمد حبيبى، ١٤١٥ق: ٣٦٥) فمزج الشاعر

بين الحاستين حاسة السمع وحاسة البصر حتى يأخذ بالسامع إلى الجو الذى يعيش فيه ويجعل الصوت الشــجى وهو من مدركات السمع يتطاير من خفقات الوتر حيث يبصر؛ إذ أن التطاير من مدركات البصر.

وفى مكان آخر يقول:

والأرض حالمة تغنى بين أسراب النجوم
بين الخمائل والجداول بالترنم والنشيد
تصغى لنجواك الجميلة وهى أغنية (الشابى، ١٩٩٧م: ١٨٨)

يقول الشــابى: إنّ الأرض حالمة غارقة فى الحلم والرؤيا تغنى بين أســراب النجوم، وبين المروج والأنهار، تترنم، وتغنى، وتنصت لنجواك الجميلة التى هى أغنية.

فنرى الشابى فى هذه القطعة الشعرية أيضاً مزج بين الحواس وطاقاتها، ويحمل بتراسل حاســتى الســمع والبصر على الانزياح عن حد التصوير الذى يتبادر إلى ذهن المتلقى؛ فالشاعر جعل النجوى المسموعة جميلة ومرئية، فمن خلالها خلق دلالة مختلفة عن الدلالة المألوفة إلى ذهن المتلقى؛ فتراسل الحواس يخلق دلالة جديدة تدهش المتلقى بوقوعه فى دائرة الانزياح عن المألوف. فيســتخدم الشاعر هنا تقنية تراسل الحواس لتقديم صورته الشعرية لأنّ التأثير بالتراسل أقوى، ووقعه أشد على النفس؛ إذ يقدم المشاعر طازجةكما يحس بها الأديب، حيث يســعى إلى تقديمها فورة مشاعره وأحاسيسه، لا كما هى فى عالم المدركات الحســية العادية التى يعرفها المتلقى، وبذلك يشكل التراسل إنزياحاً تصويرياً تنتقل فيه الألفاظ من العلاقة المعيارية النســقية، بــين الدوال، إلى علاقات تنتج دلالات مفعمة بالإشعاع والتجلى. (أبوججوح، ٢١٠: ٧٦-٧٧)

والشاعر الفارسى سهراب سبهرى يمزج بين حاستى السمع والبصر حينما يقول:

من در این خانه به گمنامی غمناک علف نزدیکم مــن صدای نفــس باغچه را می‌شــنوم
و صدای ظلمت را، وقتی از برگی می‌ریزد وصدای ســرفه روشنی از پشت درخت

(سبهرى، ١٣٨٥ش: ٢٨٦)

الترجمة: أنا فى هذا البيت قريب الغربة من غربة العشب الحزينة
أنا أسمع صوت نَفَس الحديقة

وصوتَ الظلمةِ حينَما تنصَبُّ من ورقةٍ
وصوت سعال الضياء من وراء الشجرة

ففى الشعر المذكور من سبهرى نجد اختلاطاً وتبادلاً بين حاستى السمع والبصر ونرى الشاعر يسمع الظلمة بدل أن يراها وتصبح الظلمة المرئية، مسموعة، وفى البيت الأخير أيضاً نرى أنّ الشاعر يستخدم تقنية تراسل الحواس ويعبر عن السعال (من مدركات السمع) بالضياء (مدركات البصر) فالسعال سمعى لكن سبهرى لإثارة الدهشة جعله بصرى، فيعمد إلى التبادل بين الحواس حتى يقدم صورة أكثر تأثيراً على المتلقى؛ وأيضاً الشاعر من خلال استخدام تقنية تراسل الحواس يزيد ألفاظه الشعرية طاقة للتعبير عن تجربته الشعورية. وجدير بالذكر أن الشاعر عن طريق التبادل بين معطيات الحواس استطاع أن يدهش المتلقى ويخيب أفق انتظاره ويشعره بعمق جمالية الصورة الشعرية. فهو يمزج بين الحواس وطاقاتها حتى يعمل على إثارة دهشة المتلقى عند تلقى الصورة الشعرية بخلق صور شعرية غير مألوفة بالنسبة إلى المتلقى، و«بذلک يحق أن يقال أن التراسل هو وسيلة من وسائل بناء الصورة بهدف الجمال الفنى.» (الوائلى، ١٩٩٣م: ٣)

وفى مكان آخر يقول:

علف ها ريزش رؤيا را در چشمانم شنيدند:
ميان دو دست تمنايم روييدى/ در من تراويدى
آهنگ تاريک اندامت را شنيدم
(سبهرى، ١٣٨٥ش: ١٣٦)

الترجمة: سَمِعَت الأعشاب انصباب الحُلم فى عيونى
ترعرعت بينَ يدَى رجائى/ نضحت فىَّ
سَمِعتُ الأغنية المظلمة لهندامک

وفى هذه القطعة الشعرية قام سبهرى بتبادل معطيات الحواس واستغلال طاقاتها للتعبير الأدق عمّا يعيش فيه من شعور مرهف، ولهذا يجعل العين أداة للسمع، فيسلبها طاقتها البصرية، ليبدع صورة شعرية غير مطروقة من قبل، ولم يعرفها المتلقى قبل هذا، فيقول إنّ الحشيش سمع انسكاب الحلم فى عينىّ. وفى الشطر الأخير منح الموسيقى

التیتکـون من مدرکات السـمع لونـاً وجعلها من مدرکات البصر وعن طریق تراسـل الحواس أو التبادل بین معطیات الحواس یسـعی إلی ترسـیخ الصورة الشعریة فی ذهن متلقی شعره.

وفی مکان آخر یقول سبهری:

حکایـت کن از بمب‌هایی که من خواب بـودم، و افتاد/ حکایت کن از گونه‌هایی که من خواب بودم، و تر شد

بگـو چند مرغابی از روی دریا پریدند/ در آن گیر و داری که چرخ زره پوش از روی رؤیای کودک گذر داشت

قناری نخ زرد آواز خود را به پای چه احساس آسایشی بست

(سبهری، ۱۳۸۵ش: ۸)

الترجمة: احکِ عن القَنابل الّتی سَـقطَت وأنا کنـت نائماً / احکِ عن الخدود التی تبلّلـت وأنـا کنت نائماً / قل کم بطٍ قَفَزَ من فـوق البحر / فی تلک الضجّة التی عبرت فیها دبابة مدججة من فوق حُلم الطفل / فی رِجلِ أیّ شـعور بالطمأنینة شـدّ الکَناری خیط غنائه الأصفر؟!

وجدیر بالذکر أنّ التبادل بین معطیات الحواس والتشابک بین طاقاتها یمنح الشاعر أو الأدیب طاقة مضاعفة لرسـم الصورة الشعریة المنشودة، ویساعده أیضاً علی توفیر الانفعال النفسـی فی المتلقی، کما لاحظنا فی الشـعر الأخیر الذکر من سهراب سبهری حینما یخلط بین حاسـة السـمع والبصر، ویمنح غناء الکناری الـذی هو من مدرکات السمع لوناً أصفر فیصبح من المرئیات.

فهکذا رأینا کیف استخدم الشابی وسبهری تقنیة تراسل الحواس بطریقة لطیفة تظهر لنا اندماج الشاعرین فی الطبیعة وقدرتهما فی کسر الحواجز بین مدرکات الحس لیترکا تأثیراً أقوی علی المتلقی.

ب) الصورة الصوتیة المتحولة إلی الذوقیة:

من المعروف أنّ تراسـل الحواس یعطی فرصة لاستغلال حاستین أو أکثر من خلال

ذكر حاسة واحدة، إذ تتداخل وظيفتا حاسة السمع والذوق تداخلاً فنياً، وتنتج بسبب ذلـک صورة فنية جميلة لافتة للسـامع، وذلک يفتح نافذة شاسـعة للتأمل فی الحواس ومعطياتها. (عفاف إبراهيم، ٢٠١٢م: ١٦٢) فالشـابی لخلق صورة لافتة للسـامع يعمل علی تبادل حاسة الصوت والذوق، ويقول:

أيهـا الطائـر الكئيـب تَغَـرّد إن شَـدو الطيـور حلـوٌ رخيمـه
وارتشـف من فمی الأناشيدَ سَكرَی فالهـوی سـاحر الـدلال وَسـيمه

(الشابی، ١٩٩٧م: ١١٩)

يقول: يا أيها الطائر المكتئب غرّد، فإنَّ صوت تغريد الطيور عذبٌ، وامتَصِّ من فمی الأناشيد وهی سكری، فالحب دلاله ساحر وجميل. فهو يستمد من الطبيعة ليعبّر ما يجول فی ذهنه، ينادی الطائر المكتئب المترنم ليغنی ما هو ينشده. وكما نری فی المصرع الثانی من البيت الأول لو اعتبرنا مفردة "حلو" هنا بمعنی ما حلا وعذب طعمه، فيكون الشاعر هنا قد مزج حاسة السمع مع حاسة الذوق، حيث منح الأناشيد المسموعة طعماً، فيعبّر عن ليونة الأناشـيد بالحلاوة التی تكون هی من مدركات الذوق. وفی البيت الثانی مرة أخـری يمنح الأناشـيد التی تخرج من فمه وهی من المسـموعات صـورة ذوقية، حيث يطلب من المتلقی أن يرتشـفها من فمه كشـراب، ليزيد المتلقی شوقاً للبحث والغور فی أعماق التجربة الشـعورية، والالتذاذ بالصورة الشعرية المقدمة من صوت الأناشيد التی تمتع بالعذوبة والنشوة. وأيضاً يزيد الإيقاع الشعری حتی يرتفع مستوی التلقی والتأثير الناتـج أثناء عملية التواصل الأدبی، فالإيقاع فی الأدب خاصةً والفن عامة هو دفقات الدم المندفعة فی شرايين العمل الفنی. (راغب، ١٩٩٦م: ١٦٧) ولا شک فی «أنّ موسيقی الشـعر تسهم إسهاماً فاعلاً فی خلق الجو النفسـی الذی يجعل أرضية الصورة الشعرية أكثر اتسـاعاً ... لكی يرقص المتلقی علی إيقاعها النشـوی.» (عدنان قاسم، ٢٠٠٠م: ٢٧) فالشاعر نقل الصورة الشعرية من مستواها المألوف إلی مستوی انزياحی بتراسل الحواس ليعمق المشـهد الذی يتغلغل فی نفسه. فينجح تراسل الحواس فی عملية تعميق الصورة الشعورية والكشف عن أعماقها الجمالية.

ونجد تبادل حاسة السمع والذوق عند سهراب سپهری حينما يقول:

در ابعاد این عصر خاموشی
من از طعم تصنیف در متن ادراک یک کوچه تنهاترم
(سپهری، ١٣٨٥: ١٣٨٥)

الترجمة: هنــا فى فضاءات (زوايا) عهد الصمت هذا، أنا أكثر وحدةً وغربةً من طعم أغنية ذاقها إدراك زقاق.

سبهرى يجعل للغناء طعماً ذوقياً؛ وهذا كلّه تمهيد لكسر الحواجز القائمة بين الحواس وتشــاركها فى خلق الصورة الشعرية المثيرة لدهشة الســامع والمتلقى، وتخليص الصور الشــعرية من الجمود، واســتخدام طاقة الحواس بما فيها للتعبير عن الشعور المكمن فى الأجواء النفسية،وهذا هو شأن التراسل الذى من وظائفه أنه رد فعل فنى على المألوف المكرر من الصورة الشعرية. (حسين خياط، ٢٠١٢م: ١٦٤)

وفى مكان آخر يقول:

اى وزش شور! اى شديدترين شكل!
سايه ليوان آب را
تا عطش اين صداقت متلاشى، راهنمائى كن
(سبهرى، ١٣٨٥ش: ٤١٣)

الترجمة: يا أيها الهبوب المالح! يا أشدَّ صورةً منظرا!
دُلّ ظّل كأس الماء / للوصول إلى ظمأ هذا الصدق المتلاشى

فهبوب الريح هو من مدركات حاسة السمع ولكن سبهرى يجعله من مدركات حاسة الذوق ويمنحه ملوحةً، حتى يخلق صورة شعرية رائعة وغير مطروقة لذهن المتلقى، ويثير ذوقه لمتابعة الشــعر والتمتع بالصورة الشعرية،كما أنّه عمل على استخدام تقنية تراسل الحواس للتعبير الأدق عمّا فى أعماق وجوده من كلام وأحاسيس.

فمن خلال التبادل بين الحواس ومعطياتها تتكوّن الصورة الشعرية، كما يقول عشرى زايد: «يتم بناء الصورة المفردة عن طريق تراسل الحواس؛ إذ تتداخل العناصر الحسية بما تشــتمل عليه من ألوان، وأشكال، وملمس، ورائحة، وطعم، فتشترك جميعها لتشكيل الصورة الشــعرية؛ كأن يقوم الشــاعر بخلع صفة حاســة البصر على حاسة السمع؛ فما

يدرک بالبصر يصبح مسموعاً والمسموع يصبح مرئياً، وما حقه أن يُسمَع يُشَمّ وهكذا.» (عشرى زايد، ٢٠٠٠م: ٨١) وذلک وفقاً لمقتضيات الانفعال الداخلى للشاعر، «فتتحول مظاهر الطبيعة الصامتة إلى رموز ذات معطيات حية، ويوحى الصوت وقعاً نفسياً شبيهاً بذلک الذى يوحيه العطر أو اللون.» (هلال، ١٩٧٣م: ٤١٩)

ج) الصورة البصرية المحولة إلى الشمّية:

إنّ الشاعر فى مجال نقل الأثر النفسى يعمل على مزج الحواس حتى يستطيع أن ينقل الأثر إلى المتلقى ويجعله سهيماً فى التجربة الشعرية التى تنشأ فى الأجواء النفسية. ففى هذه الأحوال تصبح السمعيات مرئياتٍ والمرئياتُ مشموماتٍ، كما نرى ذلک عند الشابى الذى يلجأ إلى تراسل الحواس عندما يصبح الأثر النفسى طاغياً؛ فهو يمزج بين الحاستين البصرية والشمية ويعمل على تبادل مدركاتهما الحسية، كقوله:

ويفنى الجميعُ كحُلْمٍ بديعٍ تألّق فى مهجةٍ واندثرْ
وتبقى البذورُ التى حُمِّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ غَبَرْ
وذكرى فصولٍ ورؤيا حياةٍ وأشباحَ دنيا تلاشتْ زُمَرْ
معانقةً وهى تحت الضبابِ وتحت الثلوجِ وتحت المَدَرْ
لِطيفِ الحياة الذى لا يملّ وقلب الربيعِ الشذى الخَضِر
وحالمة بأغانى الطيور وعطر الزهور وطعم الثمر

(الشابى، ١٩٩٧م: ٨٠)

يقول الشاعر فى هذه الأبيات إنّ الطبيعة تكون فى حالة قريبة من الموت بعد تلک الذكريات الجميلة الخضراء فى الربيع وبعد تلک النضارة، ولكن يبقى البذر الصغير حيّاً فى جوف الأرض البارد والمظلم، والشىء الوحيد الذى يجعله أن يبقى حيّاً هو الشوق إلى الحياة والأمل فى المستقبل. فهو يعلم أن الربيع يعود بكلّ جماله ويحيى الأرض من بعد موتها.

فالشاعر فى البيت الخامس من خلال استخدام تراسل الحواس خلق صورةً رائعةً جداً، حيث جعل الربيع وهو من المرئيات مشموماً، إذ يقول "الربيع الشذى"، ثم مزج الحُلم وهو الطيف الذى نراه فى النوم بالأغانى، وهى من السمعيات، ثم خلطه بعطر

الزهور، وهو من المشمومات، وجعله مرئياً ليرسّخ ما فى قلبه فى ذهن المتلقى من خلال تكوين هذا المشـهد. ويقوم الشاعر باستخدام تقنية تراسل الحواس بدافع ترقية جمالية الأثر الأدبى والموسيقى المعنوية لأنّ الموسيقى المعنوية تزيد الكلام انفعاليةً، وتؤدى إلى جمالية النص الأدبى كما قلنا فى بداية الكلام. (هادى، ١٣٧٦ش: ١٨٠) وهى تؤثر على نفسـية المتلقى، فإنّ المتلقى فى هذا البيت الشـعرى أصبح يسمع، ويفهم، ويعى، ويحس، ويحزن، وتلتهب عواطفه، وتتأجج مشـاعره كمساهم فى العملية الأدبية، وتنبعث كوامنه الشـعورية الحارة، وذلک من خلال التركيب البديـع والمدهش الذى حصل من خلال التراسل بين معطيات الحواس الخمس.

وفى مكان آخر يقول:

يا صميم الحياة قد وجم الناى
وغام الفضا فأين بروقک
.. كنت فى فجرک الموشح بالأحلام عطراً يرفّ فوق ورودک
حالماً ينهل الضياء ويصغى
لک فى نشوة بوحى نشيدک

وكما نرى فى الشـطر الثالث يمزج الشـابى أيضاً بين الحاسـتين البصرية والشمية، ويعمـل علـى تبادل مدركاتهما الحسـية، حيث يجعل نفسـه وهو مـن المرئيات عطراً مشـموماً، ومن ثم يجعل العطر شيئاً مرئياً يرفّ فوق الورود. ونستطيع القول إن الشاعر يحاول اختراق أسـلوب الكتابة المسـتهلكة بأسلوب جديد لكى يثبت تفرّده وتميّزه عن باقى الشعراء، ويستخدم فيه تقنية تراسل الحواس التى تعتبر لغة صافية تنطلق من قلب الشاعر لتصل مباشرة إلى قلب المتلقى دون وسيط. (فتحى رمضان، ٢٠٠٧م: ٢٢١)

وأما قول سهراب سبهرى فى هذا المجال فهو:

كودكى ديدم ماه را بو مى كرد/من زنى را ديدم نور در هاون مى كوبيد
(سبهرى، ١٣٨٥ش: ٢٧٧)

الترجمة: رأيتُ طفلاً يشمُّ القمر / أنا رأيتُ امرأةً تدقُّ النورَ فى الهاوَن.

سـبهرى فى البيت الشعرى المذكور يقدم لمتلقى شـعره صورة رائعة من التبادل بين

حاستى البصر والشم، فالشاعر جعل المرئى الذى هو القمر من مدركات الشم حتى يجتاح الحواجز المرتفعة بين الحواس ويغير المألوف،وبتوظيف هذه التقنية يخلق الشاعر صورةً يأنس بها المتلقى مع كل غرابتها لذهنه، لأنّ «الصورة من أشد العناصر المحسوسة تأثيراً فى النفس، وأقدرها على تثبيت الفكرة والإحساس فيها، فهى الوجه المرئى أو المحسوس للخيال، تستثير عواطف النفس وتحركها من مكامنها.» (الساعى، ١٩٨٤م: ٢٨) ولهذا يسعى الشاعر إلى الإبداع فى خلقها، وكما سبق القول، يلجأ إلى خلق صور مبتكرة وبديعة، ومزج معطيات الحواس وتوظيف طاقتها دون أى مانع أو حاجز، وفى نفس الوقت يصبح المرئى مشموماً والمشموم مسموعاً.

فإنّنا عندما نقارن الصورة الشعرية عند الشابى وسبهرى نرى أنّ كليهما حاولا اختراق المألوف واجتياح الحواجز الموجودة بين الحواس، ولكن استخدام التقنية عند سبهرى أغرب بالنسبة إلى الشابى، لأن الصورة الشعرية عنده تحتوى نطاق خيال أوسع من الصورة الشعرية التى قدمها الشابى خلال استخدامه لتقنية تراسل الحواس. والجدير بالذكر أنّ هناك صوراً شعرية أخرى فى أشعار الشاعرين قد امتزجت الحواس فيها.

النتيجة

ومن خلال مقارنة تراسل الحواس فى شعر أبى القاسم الشابى وسهراب سبهرى توصلنا إلى نتائج، من أهمها:

- تراسل الحواس فى شعر الشاعرين أدى دوراً بارزاً فى خلق المعانى المبتكرة، وتنمية الصورة الشعرية، والتوسع فى الخيال، والرفع من مستوى الجمال الفنى لصورهما الشعرية. وقد استعمل الشابى وسبهرى هذه التقنية التصويرية (تراسل الحواس) فى أشعارهما لحث المتلقى لسبر أغوار الصورة الشعرية، وتوظيف خياله بشكل فسيح فى عملية التلقى، ورفع مستوى الاستلذاذ الأدبى. وبدت تقنية تراسل الحواس ناجحة عند الشاعرين فى تصوير اللحظة الشعورية، والكشف عن أعماقها، وإثارة فضول المتلقى، ورفع مستوى تأثره بالشعر.

- إنّ ظاهرة تراسل الحواس ساعدت الشاعرين فى اجتياح حدود الحواس، وكسر الحواجز القائمة بينها للإبداع فى المعانى الشعرية والصور؛ فالمتلقى دائماً ينتظر شعراً موافقاً لأفق توقعه، لكن تراسل الحواس يثير دهشته بالصورة الشعرية اللامتوقعة؛ وفى الواقع تراسل الحواس هو الذى يحثّ المتلقى على متابعة العمل الأدبى والتمتع بالقراءة. ومن الملاحظ أنّ استخدام تقنية تراسل الحواس فى شعر سبهرى يحثّ المتلقى على المشاركة الدؤوبة فى الكشف عن الصورة الشعرية، وذلك أقوى مما يفعله الشابى؛ لأن سبهرى يلف صوره الشعرية بستار من الغموض الذى يلح على المتلقى حتى يتأمل فى الصورة الشعرية تأملاً تاماً.
- وكذلك لاحظنا أنّ توظيف تقنية تراسل الحواس والتبادل بين معطيات الحواس أدّى إلى انفتاح الحواس وإيجاد انفعال نفسى فى نفس المتلقى، مما دعاه لكشف الصورة الشعرية الغير مألوفة بالتعمق فيها والتعايش مع تجربة الشاعر الشعورية حين خلق الصورة بالطريقة اللاواعية.
- وفى النهاية وجدنا التقنيات التصويرية الناتجة عن تراسل الحواس فى شعر سبهرى أصعب من الشابى، لأنه يوظفها بصورة غير مباشرة، ولكن القارئ لشعر الشابى يرى أنّ تراسل الحواس عنده يتمّ عن طريق تشبيه صريح جداً. وفى الواقع يسعى سبهرى أكثر من الشابى إلى إدهاش المتلقى وإيقاعه فى دائرة الحيرة، غير أنّ كليهما حاولا عن طريق تراسل الحواس خلق دلالة جديدة ومختلفة عن الدلالة المألوفة والمتبادرة إلى ذهن المتلقى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، صاحب خليل. ٢٠٠٠م. الصورة السمعية فى الشعر العربى قبل الإسلام. دمشق: اتحاد كتاب العرب.

الجنابى، أحمد نصيف. لاتا. فى الرؤيا الشعرية المعاصرة. الجمهورية العراقية: وزارة الإعلام.

خورشا، صادق. ١٣٨٨ش. مجانى الشعر العربى الحديث ومدارسه. تهران: سمت.

راغب، نبيل. ١٩٩٦م. موسوعة الإبداع الأدبي. لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر.
سپهری، سهراب. ١٣٨٥ش. هشت كتاب. تهران: انتشارات طهوری.
الشابي، أبوالقاسم. ١٩٩٧م. أغاني الحياة. المجلد الأول. الطبعة الأولى. بيروت: دار الجيل.
شريعت، رضوان. ١٣٧٠ش. فرهنگ اصطلاحات ادبی. تهران: انتشارات هيرمند.
الصائغ، وجدان. ٢٠٠٣م. الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
عدنان قاسم، حسين. ٢٠٠٠م. التصوير الشعري. القاهرة: الدار العربية.
عشری زايد، علی. ٢٠٠٢م. عن بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة: مكتبة ابن سينا.
كيطيلو، أحمد. ١٩٩٧م. الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي. الطبعة الثالثة. بيروت: دار الطليعة.
هادی، روح الله. ١٣٧٦ش. آرايه های ادبی. تهران: شركت چاپ و نشر كتابهای درسی ايران.
هلال، محمد غنيمي. ١٩٧٣م. النقد الأدبي الحديث. القاهرة: دار النهضة.
اليافي، نعيم. ١٩٨٢م. مقدمة لدراسة الصورة الفنية. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

المقالات

رسولی، حجت وسعيد فروغی نيا. ١٣٩٠ش. «ابوالقاسم شابی ميان رومانتيسم و سمبوليسم». مجلة پژوهشهای نقد و ترجمه زبان و ادبيات عربی. العدد الأول. صص ٤٧-٦٦.
روحانی، مسعود ومحمد، فياضی. «سهراب سپهری، انديشه ای عادت ستيز، شعری هنجارگريز بررسی سه دفتر شعرصدای پای آب، مسافر و حجم سبز». فصلنامه پژوهش های ادبی. سال٦. شماره٢٣. صص ١٢٦-١٠٩.
عبدالنبي، عنوز وكاظم عبدالله. ٢٠٠٧م. «تراسل الحواس في شعر الشيخ أحمد الوائلي». مجلة مركز الدراسات والأوثقة. العدد السادس. صص ١٧٧-١٦٧.
الغذامي، عبد الله. ٢٠١١م. «تراسل الحواس – انفعالية النص». صحيفة المثقف. العدد ١٦٣٧. العراق.
فتحي رمضان، أحمد. ٢٠٠٧م. «بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم». مجلة جامعة الموصل. المجلد ١٤. العدد الأول. صص ١٦-١.

الرسائل الجامعية

فارس، الزهر. ٢٠٠٥م. الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف. جامعة قسنطينة: رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الماجستير.

محمد أبوجحجوح، خضر. ٢٠١٠م. البنية الفنية فى شعر كمال أحمد غنيم. غزة: الجامعة الإسلامية.

مصطفى أبو الرب، أياد توفيق. ٢٠٠٩م. أثر النزعة التشاؤمية فى المعجم الشعرى لأبى القاسم الشابى، نابلس، جامعة النجاح الوطنية: رسالة ماجستير.

حسين خياط، عفاف إبراهيم. ٢٠١٢م. رثاء الأب فى الشعر العربى الحديث. لامک: رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الماجستير.

محمد حبيبى، محمد بن حمود. ١٤١٥ق. الاتجاه الابتداعى فى الشعر السعودى الحديث إلى بداية التسعينيات الهجرى دراسة موضوعية وفنية. جامعة أم القرى: رسالة ماجستير.